جلالة السلطان الغازي

عبد الحميد خان المعظم

نشرت جريدة الفيغارو فصلاً تحت هذا العنوان جاء فيهِ

ان الظروف التي تضع جلالة السلطان في مقدمة مشاهد السياسة كما هو الآن في مركز يشغل العيون والعقول قليلة جداً ولقد رفع الى مقام جلالة السلطان عبدالحميد الحادث البلغاري وأُنيط بحكمتهِ حلهُ على الوجه الذي يراهُ موافقاً ، وفي خلال ذلك قبض الى رحمة الله تعالى المغفور لهُ توفيق باشا خديوي مصر فصار على جلالة السلطان ان يبعث الى خلفه بفرمان الوراثة في الاريكة الخديوية وتثبيتهِ عليها

ولقد قلت واقول انهُ ما من سلطان اجتمعت لديهِ الاشغال والاعمال منذ بداية ملكهِ اجتماعها لدى جلالة عبد الحميد الذي ولد في ٢١ سبتمبر من عام ١٨٤٢ فيكون لجلالته الآن ٤٩ سنة سنًّا ونحو ١٥ ملكاً وهو مقيم في قصر يلدز العالي على رابية متسلطة على الاستانة العلية والبوسفور ويخيل للناظر الى سراياهُ الشاهانية من الخارج انها مدينة كثرت في جوانبها السرادقات لاستقبال ذوي الرؤُوس المتوجة وسائر الامراء وذوي المناصب العليا والوجاهة الذين يضيفهم عظمة السلطان ، وخلف القصر حديقة غناء يتنزه فيها جلالتهُ ممتطياً جواداً ويعد لهُ فيها الصيد

اما مفروشات القصر فعلى قواعد الذوق السليم وهي بسيطة ليس فيها شيء من الاسراف اما عظمتهُ فيجب ان يستقبل كثيرًا وان يادب المادب المتواترة التي يحضرها السياح وارباب المناصب والفضل ويرى فيها الغريب ادوات السفرة من الذهب الخالص الوضاح ويترأس عظمتهُ هذه المادب بنفسهِ ويلطف ويأنس بالذين حدها ملاطفاً كل الحضور مقابلاً كل فرد من ضيوفه بكمال اللطف والترحيب

ولما كان مقامهُ لا يسمح لهُ ان يتكلم بغير اللغة التركية كان للتراجمة شغل عظيم في الاعراب عن ملاطفة جلالتهِ بمدعويهِ وزائريهِ وابلاغ كل منهم كلمات التحبب التي تتناثر كالدرر من فيهِ ، وفي هذا كفاية لنفي قول القائلين بان حضرة السلطان عائش وحدهُ في قصره وانهُ لا يكاد يظهر لاحد ولا يخرج من غرفه الا لحضور صلاة الجمعة وحفلة السلاملك فان الامر بالعكس ولم نرَ الى الآن اوربيًّا لهُ شهرة وصيت رجع من لدنهُ بالخيبة من المثول بين يديهِ

وجلالتهُ متوسط القامة جميل الملامح حاد النظر ورداؤُهُ العادي ثوب عسكري مع حسام على جنبه وبساطة ذوقه ومعيشته تظهر في لباسه وحديثه . وهو ينهض باكرًا جدًّا فيستسلم للنظر في مسائل الدولة واشغال البلاد بحث يمر تحت نظره وبين يديه كل ما هو متعلق بتلك الشؤون وفي كل صباح يستدعي اليه اثنين او ثلثة من وزرائه فيتداول معهم في شؤون البلاد ويجادلهم في المشروعات المرفوعة اليه وينظر في ارائهم ويسمع اقوالهم ولا يضع ارادتهُ موضع الوجوب الا متى وزن كل امرٍ وعرف ما لهُ وما عليه ، وهو كثير الاهتمام بالجيش وكل ما يتعلق بهِ كالملابس والتجهيزات وغيرها فلا تراهُ يفتر عن ذلك طرفة عين بل تجدهُ في كل ساعة جاهدًا في سبيل اصلاح قوى البلاد العسكرية وتنظيمها لقاء صعوبات الحاضر وتخاوف المستقبل

ثم انهُ منذ مظاهرات كرونستاد ليس بحليف احد ولكنهُ صديق الجميع ولا تجد عنده دسائس الذين يرغبون في استجلابه الى حلقة محالفاتهم الا ترساً من الصبر والحزم يدرأ بهِ كل سهم يوجه اليه من هذا القبيل فلا يزعزعهُ امرٌ ولا يقوى عليه رأي وذلك ان التجارب السياسية علمتهُ منذ ١٢ او ١٣ سنة حقيقة لا يختلف فيها اثنان وهي انهُ بعد ان نظر الى اعمال اصدقاء الدولة واعدائها بحسب التقاليد ادرك ان النمسا وانكلترا اللتين في الازمات ذات الخطر وبدون ان تطلقا مدفعاً واحدًا لنجدتهِ كلفتاه شيئاً كثيرًا كانتا اشد وطئاً واثقل حملاً من الروسية نفسها التي حاربتهُ

ثم ان لدى جلالة السلطان مسالة احلها صدر اهتمامه وهي عدم زيادة الضرائب والمكوس على عاتق الشعب وكلما عرض عليه مشروع من هذا القبيل تنحى عنهُ في الحال ولا يقوى بشر على اقناعه بوجوب التصديق عليه واجرائه ولما انتهت الحرب الاخيرة (عام ٨٧ — ٧٨) وجد مملكتهُ تحت احمال مالية هائلة فعقد وفاقاً مع المداينين وهو لايزال قائماً بهذا الوفاق بكل كرم وشرف تاركاً لهم كل الايرادات التي تعهد بتقديمها

اما عن ميله الى الاصلاحات الداخلية ورغبته في تقدم بلاده ونجاحها فحدث ولا حرج فانك تراهُ منكبًّا على الخطط والرسوم انكباب مهندس كما كان الامر متعلقاً بالمسائل الاقتصادية او بفتح فرع من بلاده الجميلة التي لا تفطر يد الانسان لان تعمل فيها كثيرًا لتعميم الاعمال النافعة والاصلاحات المفيدة ونشر لواء الحضارة والمدنية فيتفحص المسائل بنفسه ويدرسها درس عالم ملم بخوافيها الماما بظواهرها ولم نرهُ اخطأ مرة في حكمة بل رايناهُ في كل مرة مصيبًا كل الاصابة

ولا بد لي ههنا من الالمام بشيءٍ من تاريخ اعمال جلالتهِ فاقول انهُ ارتأى في بداية ملكهِ ان يتحف العثمانية بدستور وحكومة برلمانية وكان ذلك في ٢٣ دسمبر من عام ١٨٧٦ فتقرر ان يتالف مجلس الشورى من اعضاء دائمين تنتخبهم الحكومة ومجلس المبعوثان من نواب ينتخب منهم واحد عن كل ٥٠٠٠٠ عثماني وافتتحت دار الندوة هذه باحتفال في شهر مارس من عام ٧٧ فافتتحها جلالة السلطان بنفسهِ في مكان بجانب السراي القديمة بخطاب انيق للغاية وقد اطلعنا على هذا الخطاب بعد ١٤ عاماً من النطق بهِ فوجدناه من الاجادة والاحسان بمكان ورأينا النزاهة والاخلاص والحكمة تفيض من جوانبهِ ، وكان ذلك وحرب ٧٧ على وشك الحدوث وسربيا والجبل الاسود ناهضان ضد العثمانية والبلاد في حاجة الى المال والجنود فطلب جلالتهُ كل ذلك من نواب البلاد والامة ثم قال

« وانني ارى من الضرورة القصوى الاسراع بعاً بيد الحرية والمساواة بين كل رعاياي واقامة حد للنسق الاستبدادي ووضع مسالة اصلاح القوانين وتنفيذها وادارة شؤون البلاد وترتيبها تحت مراقبة ارادة الشعب نفسهِ وبالجملة ان اؤَلف بين النسق الاداري ومبادىء النظام والمداولة »

واستمرت مدة الجلسات الى ٢٨ يونيو ثم اقفلت بخطاب لرئيس مجلس المبعوثان وكان من اعمال دار الندوة انها اقترعت في اقل من اربعة اشهر على ١٨ قانوناً منها قانون الميزانية وامتد عملها الى الاعمال الخارجية فضلاً عن الشؤون الداخلية فقررت مسالة الحرب بين العثمانية والجبل الاسود وارسلت كتاب شكر للورد دربي على رفضهِ منشورًا سياسيًّا من البرنس غورتشاكوف واتت غير ذلك مما لا نتعرض لذكرهِ وبما يدل دلالة واضحة على اشتغالها بالشؤون الخارجية ، وقد رأينا كل الاشخاص الذين حضروا مداولات هذه المجالس يشهدون بوطنية اعضائها ورفعة مقامهم وحسن مقاصدهم

ولكن عدم التجربة والاختبار جاء لسوء الحظ حاجزًا في وجه تقدم هذه المجالس المفيدة فانهُ لم يلبث ان دفع بالنواب الذين لم يكن بعضهم باعظم علماً من منتخبيهم الى التعدي على الحقوق السلطانية والمداخلة فيما هو من خصائص الحضرة الشاهانية وحدها دون سواها بينما كانت الحرب دائرة الرحى ونطاقها آخذاً في الاتساع بحيث كانت تستغرق كل موارد الدولة وتستلفت كل انظار البلاد لذلك كانت اولى جلسات تلك المجالس اخرها ولم يستدعهم جلالة السلطان للاجتماع منذ ذلك الحين فان حكمتهُ اوصلتهُ الى الادراك بان مثل ذلك متعسر في البلاد العثمانية ولذلك ضرب بعد تجربتهِ صفحاً عنهُ

ولا استطيع قبل ختام هذه النبذة الا ان اجيء بالمقابلة بين جلالة السلطان وفيليب الثاني الذي كان معدودًا من اعظم رجال اوربا العصرية فان الذين زاروا هذا الملك وجدوا في القصر الذي انفرد فيهِ للعمل والجهد كما انفرد عظمة عبد الحميد في قصر يلدز للانكباب على الاشتغال اثار القدرة على الشغل التي كان ابن شارلكان متصفاً بها ولو مر هؤُلاء الاشخاص انفسهم في قصر يلدز لوقفوا حائرين مندهشين من كثرة الاوراق الفائقة الاحصاء التي تمر في كل يوم بين يدي جلالة السلطان عبدالحميد وفي ذلك دليل على حدة الذهن وقوة الفكر والصبر على الاشتغال وبالجملة فان لجلالة عبد الحميد كل صفات فيليب الثاني اطال الله ايامهُ ذخرًا وشرفاً لممالكهِ السنية

الصين

نشرت جريدة الديبا في احد اعدادها الاخيرة فصلاً في احوال الصين جاء فيهِ

ارسلت منذ بضعة ايام وكالة الصين مذكرة الى الجرائد تتعلق بحوادث يانغ تسي فلم يهتم بشأنها كما يجب حالة كونها مشتملة من الامور الغريبة ما يستدعي البحث فيهِ ولا يسمح بتركها في جانب النسيان وعلى الاخص اذا قوبل بينها وبين ما نشر من الاخبار في لندرة عن حوادث الصين في نفس الوقت الذي صدرت فيهِ هذه المذكرة . فان وكالة المملكة السماوية افتتحت مذكرتها » بحمد الله وشكره لعدم حدوث عارض جديد بعد حوادث ايتشانغ في شهر سبتمبر الفائت وذلك بهمة الحكومة الصينية وبما اتخذتهُ لذلك من الوسائل الفعالة والوسائط الحازمة » ثم ذكرت دفع التعويضات للمرسلين المسيحيين من كل جنس ومذهب ولعائلات القتلى جميعها ثم معاقبة عشرة من الموظفين المدنيين والعسكريين والقاء القبض على ١٠٠ شخص وقتل